حسن حنفي
وحوار المشرق والمغرب

جمال مفرج(*)

جرى بين الأستاذين الدكتور حسن حنفي والدكتور محمد عابد الجابري حوار فكري على صفحات مجلة "اليوم السابع" الباريسية سمي بـ " حوار الثمانينات". وقد أثار هذا الحوار الشهير ردود فعل واسعة في الأوساط الفكرية العربية، لأنه تطرق إلى مواضيع مهمة كانت وما زالت تشغل العالم العربي منذ مطلع القرن العشرين، كالحرية، والديمقراطية، والعلمانية والإسلام، والحداثة، ...إلخ.

جرى الحوار بين مفكرين، واحد من مصر، والثاني من المغرب، وقد كان الغرض من ذلك كما يقول حسن حنفي هو أن الأوان قد حان لتجاوز أحادية الطرف وما ترسب في الوعي القومي العربي من تكفير لكل فرق المعارضة، ولنبذ التفرقة الاستعمارية للعالم الإسلامي إلى إسلامي وعربي أولا ثم تقسيم العالم العربي إلى مشرق ومغرب ثانيا، وما ترتب على هذا التقطيع للجسد العربي من دعوة جيل المفكرَيْنِ إلى خصوصية مغربية، عقلانية علمية طبيعية، في مقابل مشرق صوفي ديني.

(*). قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، الجزائر.

لقد رأى حسن حنفي في ذلك الحوار الفكري فرصة ومقدمة للحوار السياسي، فالحوار بين المفكرين كما يقول: " إنما يمهد الطريق للحوار بين القادة والزعماء. فالفكر يسبق الفعل، والتصور يأتي قبل الممارسة. [و] هذه ليست مثالية [لأنها] تعطي الأولوية للفكر على الواقع بل إنها عين الواقعية في المجتمعات التراثية التي مازال فكرها بديلا عن واقعها، وماضيها ممتدا فوق حاضرها"(١).

وبعبارات أخرى، كان حسن حنفي يتطلع، من خلال هذا الحوار، إلى تحقيق مشروع كبير هو تكوين جبهة وطنية واحدة تجمع بين المشرق والمغرب وتوحد العالم العربي حفاظا على هويته، وحماية لاستقلاله مثلما استطاع صلاح الدين توحيد مصر والشام لرد العدوان الصليبي الاستعماري الأول على المنطقة العربية قلب العالم الإسلامي.

هذا، وقبل أن يبدأ الحوار بين المفكرَيْن، كان حسن حنفي يرى أنه آن الأوان كي يتم، أولا، الحوار بين القوى الوطنية الرئيسية في الوطن العربي، وهي قوى سياسية وثقافية في نفس الوقت.

وهذه القوى هي:

١. الحركة الإسلامية التي تنبع من الموروث الإسلامي الأصيل والتي تمتد جذورها إلى ألف وأربعمائة عام.

---

(1). حسن حنفي، في معنى الحوار ومقاصده، ضمن حسن حنفي ومحمد عابد الجابري، حوار المشرق والمغرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩، ص ٠٨.

٢. الليبرالية التي بدأت منذ اتصال العرب والمسلمين بالغرب الحديث منذ مائتي عام. وكان همها إنشاء الدولة الوطنية المستقلة القائمة على الدستور والبرلمان ومؤسسات الدولة ووسائل العمران الحديث في الزراعة والصناعة والتجارة.

٣. الماركسية، التي نشأت في المشرق في بدايات القرن العشرين قبل ظهورها في المغرب، والتي أصبح لها رصيد فكري عند قطاع كبير من المثقفين والأدباء خاصة في المغرب ورصيد حركي لدى قطاع عمالي كبير في المشرق.

٤. القومية العربية أو الناصرية أو الاشتراكية العربية والتي جسدتها الثورات العربية الأخيرة والتي تكمن وراء معظم الدول العربية الحديثة[1]. هذا ورغم أن الأطر النظرية لتلك القوى متعددة، فإنه يمكنها الاتفاق في ما بينها على برنامج عملي موحد، لأن الحوار لا يبغي أحادية النظر.

والحوار بين القوى الوطنية المتعددة يجب أن يكون، في نظر حسن حنفي، متجها مباشرة نحو الواقع وليس حول النظرية كما هو شأن بعض المفكرين الذين دأبوا على إعطاء الأولوية للنظر على العمل، والإيغال في البحوث النظرية بدعوى التأصيل المعرفي أولا. والواقع الذي يجب أن يتوجه نحوه الحوار يواجهنا بتحديات رئيسية سبعة وهي مرتبة طبقا للأهمية على النحو التالي: ١- تحرير الأرض (فلسطين، وسبتة ومليلة، وافغانستان، وكشمير). ٢

(1). المصدر السابق، ص ص ٨-٩.

ويهيج وجدانه، ويخالف حسن حنفي على طول الخط بعد أن سار معه على خطين متوازيين. فهو لا يتفق مع حسن حنفي حين يقيس هذا الأخير الحاضر والمستقبل على الماضي، ولا يؤمن بأن التاريخ يعيد نفسه. ويبدو أن الجابري هيج أيضا وجدان حسن حنفي، فبعد أن كان هذا الأخير يأسف لطريقة الحوار الباردة للسباب المذكورة سابقا (أي المجاورة والحديث العابر) ها هو في آخر الحوار وفي مقالة بعنوان " قصدنا الحوار فعوقبنا بالتجريح وتصيد الأخطاء"، يلوم الجابري على الاختلاف الذي وقع بينهما حول "القضية الفلسطينية" قائلا: "بقدر ما سعدت مع أخ وزميل محاولين سويا إعطاء نموذج جديد من الحوار بقدر ما هالني "حق الرد" إلى واقعنا العربي الأليم. يبدو اننا ما زلنا طائفتين، نستعمل أسلوب التخوين والتكفير، يزايد بعضنا على بعض في أمور تستحق توحيد الجهود والتبصر بالأمور، ومن أجل الوصول إلى الحد الأدنى إلى الاتفاق الذي فقدناه"[1].

وهكذا انتهى الحوار بين المشرق والمغرب بسوء التفاهم، إن لم نقل بالتعصب. ولم ينجح المتحاوران في تجاوز مسألة مشرق/ مغرب. وربما كان حسن حنفي على حق حين أرجع سبب ذلك إلى مجلة "اليوم السابع" التي غيرت، حسب قوله، عناوين الحوار فوجهته عن غير قصد بدل من العناوين الموضوعية المحايدة، وعرضت صدريهما لتصويب السهام[2].

(1).المصدر السابق، ص١٣٠.

(2).المصدر السابق، ص١٣٨.